«الفضاء العام» وتغيّر «الفاعل الاجتماعي»؛

قراءة في سوسيولوجيا «الثورات العربية»

بقلم : جادالله الجباعي

كاتب وروائي سوري

انطلقت ثورة الشّباب التونسي وفاتحة «الثورات العربية» التي استلهمت روحها من صرخة البوعزيزي في فضاء تونس، الصرخة التي أعادت الإرادة المسلوبة للشعوب العربية، وأعلنت أن العالم العربي ليس في منأى عن التغيير، سرعان ما تردّد صداها في فضاء أزرق بات يختصر المسافة والزمن حتى حدود الخيال. فضاءٌ ظلٌّ تعدّى قدرة الأنظمة الشمولية ودولتها التسلطية بجبروت أجهزتها وآلة عملائها السرّيين على المراقبة والضبط والهيمنة. وأعاد هندسة البناء الاجتماعي المختل بأوتار الإرادة ابتداءً من خميرته الفوضى. وخطاب بسيط نطق الكلام فصيحاً أن «الإنسان كائن يشعر بالكرامة»، وأن «الشعب يريد».

لقد فاجأ الحدث العربي الكثيرين بتوقيته، وسرعة تحولاته، وكان له وقع الصدمة أو الدهشة، ليس على المثقفين والأكاديميين والمحللين والساسة فحسب، بل حتى على دوائر الأجهزة والاستخبارات المحلية والدولية، والتي كان يُعتقَد بقدرتها حتى على عد الأنفاس على البشر. الأمر الذي ترك ارتباكاً في النسق الإدراكيّ والمعرفيّ السّائد وقوالبه النمطيّة، في فهم دينامية المجتمعات العربية، ورصد التحولات البنيوية الحاصلة فيها في عالم العولمة. فالعالم العربي قد ظلّ في منأى عن التغيرات الديمقراطية التي عصفت بالعالم المحيط من حوله منذ نهايات القرن العشرين على أثر انهيار المنظومة الاشتراكية وما عرف بسقوط «الأيديولوجيات الكبرى»، بالرغم من توافر كل مبرّرات التغيير وضروراته في جميع بلدانه. ما جعل التنظير السوسيو- سياسي بأدواته التقليدية يوجه اهتمامه نحو البحث في التراث والثقافة الإسلامية وعلاقتهما النابذة للقيم الديمقراطية تارة، أو تركيز الاهتمام الأكاديمي والمبحث السوسيولوجي على الدولة الشّمولية و«قدرة النظم التسلطية على الاستمرار والتأصّل